بين الخيال والواقع

عندما تنعم النظر في تاريخ أمة ما أو مجتمع ما، أنّى لنا أن نتحقق من واقعية الأحداث؟ عندما يشهر مصرف ما إفلاسه، لا يشعر المصرف بألم. عندما يخسر بلد ما حربا لا يتألم فعلاً.. هذا مجرّد استعارة. وعلى نقيض ذلك، عندما يصاب جنديّ ما بجراح في معركة، يتألم. وعندما يحتاج إنسان فرد إلى لقمة عيش يتألم فعلاً وكذلك عندما يبعد طفل ما حديث الولادة عن أمه.. هذا هو الواقع!

ليس الخيال سيئاً، انه جد حيوي! ففي معزل عن القصص والروايات التي يجمع عليها معظم النّاس حول المال والدول والمؤسسات، لا قائمة لمجتمع بشري متكامل. نحن لا نستطيع مزاولة كرة القدم ما لم يسلّم كل إنسان معنيّ بالقواعد عينها، ولا يسعنا أن ننعم بأرباح السوق والمحاكم خارج ما نجمع عليه من روايات مماثلة، ولكن الروايات وما شابهها مما هو من نسج الخيال وحتى الأحلام، هي مجرّد أدوات. فما عليها أن تستحيل أهدافاً لنا أو مقاييس نعتمدها على الدوام وبالضرورة. عندما نسهو عن انها من نسج الخيال والأماني وحتى المخططات، نفقد كل علاقة لنا بالواقع. هكذا يشنّ بعض المسؤولين، ولا سيما في بلادنا، حروباً موصولة لجني المغانم أو للدفاع عن حقوق وطنية أو قومية أو حتى إقليمية..

الإثراء، ليس حصراً مادياً، والهدر قد يتبيّن مجلبة للدمار وارتكاب الكبائر. والتقوقع الوطني قد يجعلنا نتراجع على غير صعيد. أما المقاومة فهي أيضاً وعلى الخصوص متعددة الأوجه والأبعاد ولكنها في أحسن الأحوال أداة مؤقتة ينبغي ألا يكتب عليها أن تستمر أبدياً. وكذلك بالنسبة إلى مصطلحات كالممانعة والديمقراطية والسعادة..

مع بدء الألف الثالث، سيبتدع البشر تصوّرات خيالية أقوى وأشمل.. بموازرة التكنولوجيا الاحيائية والانترنت، ستسيطر هذه التصورات ليس على وجودنا اليومي وحسب بل انها ستؤطر أجسادنا وعقولنا ومشاعرنا وهكذا، يغدو التمييز أكثر فأكثر بين الخيالي والواقعي وبين الايمان والعلم أشدّ صعوبة وإنما أكثر حيوية من ذي قبل.

الواقع بلا خيال جمود وتقهقر، الخيال حافز لتغيير الواقع ولكنه ليس واقع الحال، خارج هذه الجدلية ضياع وتشويش!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه